فؤاد عجمي

The Arab Predicament,
Arab Political Thought and Practice since 1967,

المحنة العربية :
الفكر السياسي العربي والممارسة منذ ١٩٦٧

(Cambridge: Cambridge University Press, 1981).

د. غسان سلامة

منذ أربع او خمس سنوات ، يشن فؤاد عجمي من الولايات المتحدة ـ وطنه الفعلي جغرافياً ولغوياً وذهنياً بل وسياسياً ـ حملة شعواء ، لا ينقطع مددها على المرحلة الناصرية وبقاياها المبعثرة من تاريخ العرب . وهاجسه المعلن ، فهم الواقع العربي الراهن وتمحيصه . ولا تشكو الكتابة العجمية من الشح ، فتوقيعه يتنقل من صحيفة الى مجلة ، والابواب التي طرقها غيره مراراً من عرب امريكا دون جدوى ، يبدو أنها فتحت أمامه بسهولة مدهشة . وقد يكون لذكائه الواضح ولسعة اطلاعه غير المشكوك فيها دور في سهولة وتعدد هذا الوجود الفكري ، وفي كتابته المتكررة في **نيويورك تايمس** او في **فورين بوليسي**. ولا بد ـ دون أن ندخل باب الحكم على النيات ـ من القول ان لهذا التمييز اسباباً اخرى قد نجهل بعضها وقد يكون احدها كون ما يقوله عجمي ـ العربي اسماً ـ يلاقي هوى لدى القارىء الامريكي ، وهو مخاطب هذا الكاتب . وقد يكون عجمي من الذين يساعدون الانتلجنسيا الامريكية ـ من حيث يرغب ام لا ـ على تنفس الصعداء بأن مرحلة صعبة من التعامل مع العرب قد مضت وبأن العرب ، بتناقضاتهم وتخلفهم ، يستحقون ما نزل بهم من ويلات وما يعانون من كوارث .

لقد حل عجمي مسألة الانتماء بصورة اكثر جذرية مما يقول . فجنوب لبنان ، حيث ولد ، ولم يعد الا « الارض السابقة في حياتي » . وان كان الكاتب أول من يضع جانباً « الموضوعية الاكاديمية » التي يتخفّى وراءها البعض ، فذلك لم يكن للدفاع عن العرب ، بل للابتعاد عنهم اكثر . ويخلو كتابه ، الاول بعد سلسلة طويلة جداً من المقالات ، من اي منحى مستقبلي ، من اي تصوّر ولو سلبي لما يمكن أن يكون عليه العرب في السنوات المقبلة ، فالعرب في هذا الكتاب ، مادة للدراسة والوصف ، ليس الاّ .

لكن لعجمي اعذاراً كثيرة في منحاه السلبي واولها طبعاً مصير حرية الرأي في دنيا العرب . إن عدداً متزايداً من المثقفين العرب يجنحون للكتابة بلغة اخرى اكثر تحرراً من القمع اليومي والاغتيال ، من اللغة العربية التي يكاد يصبح استعمالها حكراً على صاحب السيف . هكذا يبدأ كتاب

عجمي بالاشارة الى مقتل احد الصحافيين اللبنانيين ذوي الصيت، في ظروف مأسوية وينتهي باشارة ليست اقل اثارة للتشاؤم لبلد عربي ، ليس بالصغير ، يراقب بصورة بوليسية مسألة اقتناء الآلات الكاتبة ، (التي قد تطبع بيانات معارضة) بينما يسمح باستيراد آخر ما انتجته فرنسا من عطور . ويندرج كتاب عجمي بين هاتين الاشارتين اليائستين : خطر القول الحر ، واستحالته . ومن هذا الحيّز السلبي يستمدّ الكتاب ما قد يكون له من شرعية . فالبحث المؤلم ـ لقارىء عربي طبعاً ـ في الماضي القريب ، غير ممكن هنا ومستحب هناك ، والنقد ممنوع هنا ومرغوب فيه هناك . كتابة عجمي فصل جديد من كتاب قديم ، كتاب الانتقال بالقلم الى حيث الحبر حر .

ينطلق عجمي من هزيمة ١٩٦٧ ولا ينفك يتساءل : لماذا لم تنتج عن هذا الحدث العظيم ، ردة فعل توازي هوله ؟ يرى عجمي ان مرحلة ما بعد الهزيمة تنقسم الى **محطات اربع** : محاولة محو الهزيمة بالتحالف بين التقدميين والمحافظين (١٩٦٧ ـ ١٩٧٠) ثم انتصار التيار المحافظ (١٩٧٠ ـ ١٩٧٣) ، فمرحلة قصيرة من الأمل الكبير (١٩٧٣ ـ ١٩٧٥) فالتشرذم والتبعثر في اتجاهات ايديولوجية وسياسية متناقضة (١٩٧٥ ـ ١٩٨٠) . ولا يبدو هذا التقسيم مقنعاً والكاتب يتخلّى عنه عملياً فيما يلي وقد يكون هو نفسه استعمله لهدف التوضيح للقارىء غير المختص (واهتمامه به كبير) ، ليس الّا . لكن هذا القارىء سوف يصعب عليه لاحقاً متابعة الكاتب في تجواله الفكري المضني ، حيث تتداخل الاستشهادات من ماركس الى قادة الاخوان المسلمين ، ومن محمد جلال كشك الى لويس عوض ، دون مخطط واضح .

وإن كان من خيط يربط افكار **الفصل الاول** ، فهو محاولة فهم الهامش . يرى عجمي أن هناك خطأً هيمن على الفكر العربي ، هو التيار القومي التقليدي ، الذي استمد اهتماماته من عبد الناصر او من التجربة البعثية . ويرى الكاتب ، عن حق ، ان هذا التيار ، اصيب في بعديه السياسي والفكري معاً ، بصدمة كبيرة في حرب ١٩٦٧ المدمرة . من هنا تعدّدت التيارات الساعية لنقده وتعدّيه إن أمكن . ولا يضيف عجمي جديداً ـ للقارىء العربي ـ بتذكيره بالتيارات التي برزت آنذاك من خلال نقد الفكر المسؤول عن الهزيمة ، او من خلال محاولة جني ثمارها ، او من خلال الهدفين معاً . التيار الاول ، جذري ، يمثّله في عرض الكاتب ، ادونيس وصادق جلال العظم وعبدالله القصيمي . والثاني جذري ـ اسلامي وممثله الافضل ، برأي الكاتب محمد جلال كشك (في كتابه **النكسة والغزو الفكري** خصيصاً) اما التيار الثالث فهو سلفي ـ محافظ وتصب فيه كتابات امثال سعد جمعه ، رئيس الوزراء الاردني السابق او صلاح الدين المنجد . ويشير عجمي ايضاً الى عدد من المراجعات النقدية التي قام بها بعثيون سابقون كصلاح الدين البيطار او سامي الجندي .

لكن العرض يبقى وصفياً ويثير الخيبة . فالتساؤلات الاساسية تبقى دون جواب بل دون صياغة . لماذا لم تؤدِ هزيمة ١٩٦٧ الى تجدد في الفكر القومي نفسه ، بل ادت الى بعثرته فقط والى نمو نقده **من خارجه** لا من الداخل ؟ ألأن هذا الفكر ديني ، ولو في لبوسه العصري فلا يقبل النقد ولا يستسيغ المراجعة ؟ الأن هذا الفكر اصبح مطية ومادة دعاوية لأنظمة عربية قائمة طويلة اليد ترى في المساس بهذا الزاد الفكري المهدّد ،

انتقاصاً من هيمنتها ؟ ثم سؤال آخر ، ليس اقل اهمية : لماذا بين طيات النقد الخارجي ، كان التيار اليساري الأقل حظاً ؟ هل لأنه توهم ان الثورة سوف تنشب قريباً ؟ يأخذ عليه عجمي عدم دراسته للواقع العربي الفعلي ، ولكن السؤال يبقى قائماً : هل ان الفكر السلفي ـ الديني ام القومي ـ اكثر التصاقاً بالواقع واعمق تفهماً له ؟

الفصل الثاني من الكتاب يخصصه عجمي لمصر . ولا بد من الاشادة هنا بميزتين ايجابيتين في هذا الكتاب : الاولى هي المحافظة المستمرة على الاطار العربي كحيّز للمعالجة، والثانية هي ما يمكن تسميته « بالحس المصري » ، اي بالشعور القوي ، باهمية مصر ومركزيتها الاقليمية رغم الظروف الراهنة . لكن الخيبة هي نصيب القارىء مرة اخرى . فبينما يرحّب باهتمام عجمي بكتب مثل مؤلف جمال حمدان عن شخصية مصر ، ويتابعه في مقارنة مقنعة بين عبد الناصر / السادات ومحمد علي / اسماعيل، ويراه يتنبأ ، قبل وقوعها ، بنهاية مأسوية للتجربة الساداتية ، يجده ينتقص باستمرار من اهمية التجربة الناصرية في التاريخ المصري والعربي المعاصر ، ويبدي تفهماً يصعب القبول به لأي محاولة للتخلي عن هذا الارث .

هل يمكن القبول بتفسير عجمي لحرب الاستنزاف (ص ٩٢) على انها محاولة من عبدالناصر لكبت التناقضات الداخلية في مصر ولإسكات منافسيه من القادة العرب ؟ قد تكون هذه أسباب كان لها دور ولكن التوقف عندها فحسب تجنٍ . فحرب الاستنزاف هدفت ايضاً ، ولا شك ، لرفع المعنويات العربية بعد الهزيمة ، ولابقاء نار الصراع مشتعلة في مواجهة محاولة اسرائيل فرض الامر الواقع كأمر دائم ، ولجعل الاتحاد السوفياتي اكثر اهتماماً بحاجات مصر العسكرية . تجنٍ ايضاً القول أنه لم يكن امام عبد الناصر « اي مشروع كبير يسعى اليه بعد الهزيمة » . فاعادة بناء القوات المسلحة ، والتعبئة العربية الشاملة (بما فيها نزع فتيل الخلافات الجانبية في اليمن ام في الاردن) مشاريع كبيرة . **تجنٍ ايضاً ذلك الفصل المطلق بين الناصرية في مصر والناصرية خارجها** ولو أن هناك فروقات طبيعية بينهما ، اذ ان هناك بين جماهير القاهرة وجماهير بغداد او تونس التي يتناساها الكاتب) قدراً معقولاً من الطموحات المشتركة ، وخصوصاً من العداوات الواحدة . ثم ان تصوير مصر منكبة بعد غياب عبدالناصر على عملية « علم اثار سياسية » للبحث عن ذاتها ، امر مبالغ فيه بوضوح . اذ بقيت الجذوة الناصرية حيّة في اوساط الانتلجنسيا والجيش ولو أن ابواب وسائل الاعلام بدأت تقفل في وجهها . ما من احد ينكر أن توفيق الحكيم دعا الى تحييد مصر وكلنا قرأ تساؤلات نجيب محفوظ القلقة في **الكرنك** ، لكن التساؤل شرعي ، اليوم ، عن الصدى الفعلي لدعوة الحكيم ام لتساؤلات محفوظ . ولا يخفي الكاتب موقفه من عبدالناصر حين يتحدث عن « لامعقولية تصرفاته المسرحية » . كيف يفسّر ، اذا كان الامر كذلك ، صدى هذه التصرفات في الاوساط الشعبية ، وأخذها محمل الجد الاقصى من قبل القوى التي كانت هذه التصرفات تهدد مصالحها ؟ اما إنهاء الفصل فهو اقل اقناعاً ، ان امكن ، مما سبق اذ يخلط الكاتب بتسرّع ما بين ما يسميّه نهاية العروبة ، والازمة الفعلية التي يمر بها الفكر القومي العربي في المرحلة الراهنة . ليست الامور الداعية للتفاؤل كثيرة حقاً انما تجاهلها المنظم مساهمة ، شعورية او لا شعورية بمحوها .

ويأمل القارىء أن يكون **الفصل الثالث** - والاخير - اقل اهتماماً بالوصف،واكثر إثارة للآتي ، ولكن دون جدوى . يرى الكاتب أن الثورة الفلسطينية انتهت عملياً في الاردن سنة ١٩٧٠ حيث انتصر عليها نظام الدول العربية بأكمله ، بعدما رأى فيها تهديداً لمنطق الكيانات . ثم يسجّل انتصار المحافظين ، بعد أن يذكّر عن حق ، بأن مرد هذا الانتصار عائد الى فشل الآخرين . لكنه انتصار قصير النفس ، اذ سوف يتنازع الاسلام تياران متناقضان : الأول مؤسّسي محافظ والثاني جذري ثوري ، والثاني اكثر توقداً طبعاً . ويتابع عجمي مقارناته بالصين (إجمالاً) وبالهند (احياناً) ليثبت ، اذا كان لا بد من حجة اضافية ، بأن العرب ما زالوا يضيّعون الفرصة تلو الأخرى لنهوض حضاري وسياسي فعلي.

مفيد هذا المزج الدائم وشبه الفوضوي بين الفكر والممارسة . مفيد هذا التذكير المطوّل بطروحات ما بعد ١٩٦٧ النقدية . مفيد هذا الكلام المنشور دون خوف من رقيب او وجل من رصاصة. ولكم نحسد عجمي على اشاراته الواضحة الى هذا او ذاك من القادة ، الى هذا او ذاك من الاحداث التي يجدر بنا تناسيها رسمياً لكي نبقى احياء . ولكن ماذا يريد عجمي ؟ وصف ما حصل ؟ لقد كان وصفه جزئياً للفكر كما للممارسة فتنبه الى التناقضات الداخلية في بلد ونسيها في آخر ، وحكم على المقاومة الفلسطينية بالموت سنة ١٩٧٠ متجاهلاً ١٩٧٣ والرباط والاعتراف الدولي ، والغى الارث الناصري (بجرة) قلم ، ولم يستوقفه النفط العربي في شنيع نتائجه الا لماماً ، ولم يرنُ بنظرة واحدة نحو المغرب العربي الى الغرب من ليبيا . يقول الكاتب انه لم يعد للعرب عدو خارجي جاثم ليضعوا عليه اوزار مشاكلهم . طبعاً لا يمكن القول ان الاستعمار مسؤول عن تبذير اموال النفط ، او عن اهدار الطاقات العسكرية في الصراعات الداخلية، ولكن اسرائيل اقوى من اي يوم مضى على الرغم من التشرذم العربي ، والولايات المتحدة قادرة على الامور العظمى ، والسلبية إجمالاً ، من المحيط الى الخليج . ان العرب مسؤولون طبعاً عما يحصل لهم ، ولكن تناسي ما يحدق بهم ، بارضهم وبنفطهم من مطامع ، يجعل انتقاد تصرفاتهم اقرب للشماتة منه للنقد او للوصف .

وفي المجال الفكري ، هل تساءل الكاتب عن مدى تمثيل من اختارهم للواقع العربي . هل السلفية - الجذرية تتكلم فعلياً بلسان محمد جلال كشك ؟ هل ان انتاج الفلسطينيين منحصر في مجلتي **الهدف والحرية** ؟ هل اننا لا نجد ، تزايداً بطيئاً ، انما حقيقياً في عدد الدراسات العربية النموذجية في جمعها للروح العلمية النقدية وللإنتماء المواظب الى شعب ووطن وقضية ؟ هل أن الكتابة العربية ، كما يرشح من عرض عجمي اسيرة دائمة للايديولوجيا ؟ هل هذا صحيح اليوم ؟ ثم هل ان الذكاء الوقاد، والتنعم بحرية القول ، كافيان لدى عجمي وغيره للتعويض عن تمسّك مجدب بأفكار مسبقة حيناً ، وانتقائية ايديولوجية لاقصى الحدود وغير مبررة حيناً آخر ؟ □